أحمد علي

الاسكندري

ومذهبه في اللغة

فقد مجمع اللغة العربية الملكي في نيف وثلاثين يوماً علمين من أعلامه الثابتين الذين قضوا العمر في التحصيل والدرس والاكباب على التمحيص والفحص عن دقائق اللغة. فقد فقد الشيخ حسين والي الحجة الثبت في صرف اللغة وفقد أحمد علي الاسكندري الاديب اللغوي الكبير العارف بتاريخ العربية، المتتبع لما توالى عليها من تطور خلال العصور التي كان فيها للمدنية الاسلامية الاثر الاول في تمصير العالم الحاف بحوض البحر المتوسط وانتاج العصور في مجاهل أسيا من حدود فارس الى جوف الصين. ويكفي ان اقول هنا ان فقد هذين العظيمين كان كارثة على مصر اولاً ثم على عالم الضاد ثانياً، بل اقول ان فقدهما خسارة لا تعوض

***

يقول الاسقف «إنج» الانجليزي إن لكل انسان ان يعتقد ان الحياة في احتياج اليه، ولكن ليس له ان يعتقد ان حاجة الحياة اليه حاجة ضرورية. وهذا القول صحيح من وجوه كثيرة. فان فقدت مصر هذين العالمين سوف لا تفقد اللغة العربية صرفها، وسوف لا ينسى الناس أدب العرب، وسوف يقوم من المصريين من يعتنق مذهبيهما في اللغة والادب. وإنما الذي يشعرنا بان فقدهما كارثة قلما تعوض، فذلك المخزون الذي اختزناه من قواعد اللغة وآدابها، وذلك الاخلاص الذي تجلى في تنمية موارد اللغة الفصحى [illegible] التي [illegible] بحثها وصورها التفكير والدرس حتى خلصت من ثورة الشك وارتجاج اليقين، حتى لا تبدت في النهاية صورة من العقيدة ما كان ليتأتى في تصميمها من خيوط فرقها [illegible] إلا عقيدتهما [illegible] فيها، وهذا ما نفتقده فلا نجده. فالصورة الكاملة المتحيزة المؤتلفة من مزايا الرجل العظيم، صورة لن تتكرر بذاتها مرة اخرى. اما العظمة، ذلك المعنى الكلي، فقد تتوزع [illegible] العظماء من أبناء آدم متقمصة صوراً شتى، ولكن صورة [illegible] لن تتكرر [illegible] اجزاء [illegible] كلا،

تفصيلاً واجمالاً . ولهذا أقول ، واقول بحق ، ان فقد والي والاسكندري خسارة لا تعوّض ، بل كارثة قلما ترى بمثلها دنيا الكوارث

انا نحن في فترة صراع . صراع بين قديم قائم على المأثورات والتقاليد ، وجديد يتطلع إلى دنيا جديدة . ولكل من القديم والجديد حقيقة قائمة بذاتها وحياة فياضة بشتى الصور الخلابة الحبيبة . قديم هو مجمل ما توارثناه عن القرون الاولى ، وجديد هو مباءة تمنياتنا ومسرح أحلامنا ومبعث ميولنا وشهواتنا ومعقد آمالنا والبراح الذي سوف يمرح فيه أولادنا وأحفادنا . فأيهما يقوى القلب على تركه ، وأيهما يهون نبذه على النفس ؟

هذه خطرات تختلج في نفوس ثلة من شباب هذا العصر وقليل من كهوله ، أدركتهم هذه « الخضرمة » العصرية ، حتى ليزعجهم ان يهاجم مجدد قديماً ، أو ينابذ نصير من أنصار القديم تجديداً . والمعركة دائرة الرحى في جميع مرافق الحياة ، في البيت وفي الشارع وفي دور العلم وفي الملاهي وفي الجامعة وفي الازهر . أما الغرض الذي تدور من حوله المعركة فاللغة العربية ، باعتبارها الاداة الاولى لحضارة شعب عربي الدم والميول والنزعات

***

أما فقيدنا الاستاذ احمد علي الاسكندري فكانت لهُ مذهب في اللغة ما فرّط فيه يوماً ولا تسمّح فترة في أن ينال منهُ أحد منالاً ولا فترت لهُ في الدفاع عنهُ همّة . هذا المذهب لم يجعل لهذا الاستاذ العظيم من معزل يشغله في عالم « المخضرمين » العصريين : أولئك الذين يحاولون التوفيق بين ماضي اللغة وحاجات هذا العصر الذي نعيش فيه

كان يعتقد ان اللغة جسم يمكن ان ينمو ويربو بوسائله الذاتية من غير لقاح أو غذاء خارجي . فتعلق بفكرة ان اللغة العربية لغة اشتقاق لا غير ، ثم قصر إجازة الاشتقاق على الصيغ القياسية . والمقصود بالصيغ القياسية تلك الصيغ التي ورد فيها كثير من الكلمات المصوغة على وزانها . أما الصيغ الاخرى وهي الاكثرية الكبرى ، فكان يقول ، على مذهب فريق من اللغويين ، انها صيغ سماعية تؤخذ عن العرب فقط ولكن لا يقاس عليها . بذلك تحصر الدائرة وتضيق ويصبح وضع المصطلحات العلمية وأسماء الشؤون العامة مقتصراً على استخدام وسيلة واحدة هي الاشتقاق من الصيغ القياسية في اللغة . هذا الى جانب المجاز وهو ان يوضع اللفظ المستعمل لمعنى قديم ليؤدي معنى جديداً مجوّزاً لعلاقة بين المعنيين ، سواء أكانت العلاقة كبيرة او صغيرة

كان من مذهبه في اللغة ان الفصيح من كلام العرب وحده هو الذي يحق لهُ البقاء . أما ما دون

ذلك فدخيل لاحق له في الحياة او البقاء . ومعنى الفصيح عنده ما نقل عن العرب الى نهاية القرن الثالث الهجري، قبل أن يولّد المولدون في اللغة شيئاً وقبل ان تختلط اللغة الفصيحة بعجمة العناصر البعيدة عن العربية السليمة . ولقد يُسلم بنا هذا القول الى ان اللغة العربية ملكٌ للعرب ، وليس للعرب عامة وإنما للعرب الذين عاشوا الى نهاية القرن الثالث الهجري . ذلك في حين أن الثابت ، على مقتضى حكمة النشوء والارتقاء ، إن اللغة ملك لمن يتكلمونها ويستعملونها ويتخذونها أداة للتفاهم تنمو بنمائهم وتتطور بتطورهم وتصب في القوالب التي تدعوهم الحاجة اليها . والواقع ان لكل زمان حاجاته ، وان من التحكم ان تلزم تلك الاساليب التي انتحاها أسلافنا ، كأننا غير مخلوقين لزمان بعيد عن زمانهم عشرات القرون

***

هذا مجمل مذهب فقيدنا الكبير . وهو مذهب الى الضيق كما ترى . غير ان اللغة العربية ان أريد بها أن تكون لغة علم وان تؤدّي جميع المعاني العلمية والفنية ، وجب ان ينظر فيها نظرة أخرى وان تمد بوسائل جديدة . ولقد شعر مجمع اللغة العربية الملكي بذلك فأجاز التعريب ، مقيّداً بأن لا يلجأ اليه الاّ عند الضرورة القصوى. والقيد حسن . لولا ان عبارة « الضرورة القصوى » قد جعلت القيد نافياً للإجازة تقريباً

على أن لدينا الى جانب الاشتقاق والتعريب وسيلتين أخريين ، ان تقررتا اتسعت أمامنا آفاق مترامية الجنبات واسعة الرحاب ، وكانت بها عدة اللغة لتكون أداة كاملة القوة على الوضع الجديد ، بل على خلق الالفاظ الجديدة لتأدية المعاني المختلفة

***

أما الوسيلة الاولى فهي النحت ، وهو ان ينحت من كلمتين كلة واحدة كأن يقال مثلاً « كهراطيس » للكهربية المغناطيسية ، « وخمائية » للكربوهيدريت ، وبرمائية للحيوانات التي تعيش في البر والماء ، والاولى منحوتة من كهرب ومغنطيس والثانية من فحم وماء والثالثة من بر وماء . ولا خطر على اللغة مطلقاً من اتباع هذه السنة . والنحت من أوضاع العرب جروا عليه منذ جاهليتهم . غير أن ما وصل الينا منه قليل . ولكنه كاف لنعرف انه من الاصول التي جرى عليها أفصح العرب

هنالك الى جانب النحت وسيلة اخرى توسع من آفاق اللغة ، وهي وسيلة سميتها « الاقتباس » وهي جديدة تكلمت فيها من عهد قريب ونالت استحسان جميع المشتغلين بوضع الالفاظ الجديدة من اللغويين والعلماء . فقد لحظت ان الاكثرية العظمى من اسماء الحيوان والنبات ، قد اشتقت

من اصول ثلاثية او رباعية موزونة على وزن لَذَّ للعربي جرسهُ . بذلك يكون العربي قد جرى في وضع اسماء الحيوان والنبات على قاعدة اوحى اليه بها طبيعة الظرف الذي احاط به في مختلف البيئات التي عاش فيها وساعدتهُ سليقته على تطبيقها . فاذا تأملت في الاسس الفيت ان العربي كان ينظر في الشيء حيواناً كان ام نباتاً ام جاداً ، فيلحظ فيهِ كثيراً من الصفات . فاذا غلبت في الشيء صفة ظاهرة صاغ له اسماً مستمداً من اللفظ الذي يدل على هذه الصفة في لغته . فقال العربي « الاسْليح » وزان إفعيل نبات يسلح الماشية ، وقال السُّلت وزان فُعل لنوع من الشعير ينسلت في قشرته ويكون كالبُر سواء . وقال الشعارير وزان فعاليل وهي جمع فعلول لصغار القثّاء لما يكون عليها من الزغب. وقال الخنزير وأصلُها الخزّير وزان فعيل لصفة التخازر التي في عينه ، اذ يكسرها فتظهر كأن بها خزراً ... وهكذا

والسبيل للعقول لتطبيق قاعدة «الاقتياس» هو ان نكب على جمع اسماء الحيوان والنبات عند العرب ، ثم نعرف من اية الصيغ وردت ، ونحصر هذه الصيغ حصراً كاملاً قدر المستطاع ، ثم نجاز قياسيتها والصوغ عليها في وضع اسماء الحيوان والنبات ، على ان نلحظ صفة في المسمى ظاهرة او خفية ، ونشتق من اللفظ الذي يؤديها في العربية اسماً علميًّا له . فاننا بذلك لا نخرج عن القاعدة التي جرى عليها العرب ما دمنا نلاحظ شرط لمح الصفة في المسمى على ما عمل اسلافنا ، واتباعاً لقاعدة قال بها الائمة وهي « ان ما قيس على كلام العرب ، فهو من كلام العرب »

***

اما السؤال الذي ينبغي لنا ان نسأل انفسنا فيه ازاء هذا فهو : هل يخضع العلم اللغة ، ام تخضع اللغة للعلم ؟ لا شك ان من تخصيص في ان تخضع اللغة للعلم . لان اللغة اداة تخدم العلم . وعكس هذا بعيد عن الحكمة

فيما اسلفت بيان عن مذهبين سائدين الآن . اما المذهب الاول فلن يؤدي باللغة الا إلى الجمود . فلا هو يوسع من اقيسة اللغة ، ولا هو يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون . اما المذهب الثاني فهو مذهب ضروري ، على ان يقتصد فيه الاقتصاد الواجب حتى لا تمس سلامة اللغة بما يفسدها

وعلى الرغم من ذلك المذهب المحافظ الذي كان يعتنقهُ الاستاذ الفقيد ، فان المثل الذي خلفهُ لنا في الغيرة على اللغة والتفاني في خدمتها وعدم الضنّ عليها بجهد مهما يدقّ ، او ببحث مهما تتسع آفاقه وتتشعب مظانه ، لمثل يحتذى ، وما أقل ما بين ظهرانينا من المثل ، وما أكثر حاجتنا اليها

***